من تراب الطريق (٣٥٨) من هموم المساواة !(*)

لدى إناث البشر مخزون متوارث هائل جدًا متراكم من أحقاب وأجيال ـ خاصة لدى الحضريات .. مخزون من الاندفاع والهزل واللعب والعبث وكثرة التكرار والحديث وحب التغيير والتبديل فى الأشكال وسرعة التقلب فى العواطف والقدرة على النسيان والعناية بإبراز مفاتن الجسد ، ومخزون من الخيال المتشوق السطحى بغير استغراق فى المعنويات والتصورات المجردة والمسئوليات الآجلة .. شديد الانشغال بالحاضر ومطالبه وكثير الاهتمام بالزبد والزهو وإثارة الرغبة والاشتهاء وإشعال نار الحاسدات والمنافسات !

هذا المخزون الهائل جدا لا يمكن أن يمحوه ـ أن يتساوى الإناث والذكور فى التعليم والعمل ، وأن تفتح للجنسين جميع منافذ الأشغال والمهن بلا تفريق ، وأن لا يفرق بين الرجال والنساء فروق فى الأجور والمرتبات والحقوق .. لأن ذلك ليس إلاّ تغييرا طارئا فى الفرص التى يتيحها المحيط .. لا يغير شيئا يُذكر فى ذلك المخزون والموروث الهائل .. كما لا يغيره أن توجد ملكة تملك أو رئيسة جمهورية تحكم أو رئيسة وزارة أو وزيرات أو رئيسة جامعة أو منظمة أو قاضية .. لأن ذلك ليس لعموم الجنس ، وليس شيئا عاديا كما فى الرجال .. ولكن بفضل مواهب أو

(*) المال ١٦/ ١١/ ٢٠٠٩

ظروف خاصة لدى بعضهن .. وهن مع ذلك يحملن نصيبهن من ذلك المخزون الموروث .. لا يمارين فيه ولا ينكرنه بحال ! .. فآثار هذا المخزون لا بد أن توجد بقدر يقل أو يكثر حسب اختلاف استعدادات الأفراد ، ولكن يتعيّن على من يتعاون معهن أن يراعى دائما أنهن إناث ، وأن يبذل لهن من التحمل واللياقة والآداب والانضباط ما يبذل لطبقتهن ومكانتهن من السيدات .. وهن يتوقعن ذلك وينتظرنه .. لا يتصورن إطلاقًا أنهن صرن رجالًا ، أو لم يعدن نساء ، أو حُرِمْن من مزايا وتوابع جنسهن ـ لمجرد الوصول إلى ما وصلن إليه من مقام أو مكانة أو سلطة أو مركز . بل هن يستمتعن بجنسهن ويشقين به كسائر الإناث .. فيتزوجن ويلدن ويترملن ويطلقن ويتعرضن للغيرة والإهمال وذهاب المحاسن والمفاتن كغيرهن من بنات جنسهن !

إن التغيير الطارئ فى الفرص التى يتيحها المحيط فى العصر الحديث بما فى ذلك التعليم وإشراك الجنسين فيه بلا فارق ، والمساواة فى الحقوق والواجبات بين الجنسين ـ تغير فى الآمال والأهداف والتصورات .. ولكنها لا تغير الطبيعة ولا تغير ذلك المخزون المتوارث الهائل ـ لدى الإناث !

ولا توجد فى العصر الحديث حركة جادة فى أى بلد موجهة لعلاج هذا المخزون وتنقيته وترقيته . بل تتحرك الجمعيات لضمان المساواة والحرية للإناث بعامة مع وجود هذا المخزون أو برغم وجوده .. وقد صادف هذا رضًا من جانب الصناعة والتجارة العالمية .. إذ صار خروج الإناث للأعمال والأشغال وصارت أجورهن ـ مصدر زيادة فى اليد العاملة وزيادة فى جمهور المستهلكين ، سيما وهنّ أكثر إقبالًا على الشراء من الرجال .

وهذا الاعتراف فى عصرنا بالمساواة والحرية للنساء .. قد أدى إلى الاعتراف بحرية الجنس بعامة .. ففى البلاد المتقدمة لم يعد يُرفض أو يُقاوم أو يُعاب الشذوذ الجنسى بين الرجل والرجل أو بين المرأة والمرأة .. ولم تعد هذه المجتمعات تطلب العَذْرة أو البكارة فى الزواج ، أو تحاسب الفتاة على علاقاتها الجنسية السابقة عليه . كما لم يعد للزواج هيبة ولا للطلاق صعوبة .. بل هان كل من الزواج والطلاق وهان لذلك اهتمام النساء والرجال بالأولاد وقلّ شأن الأسرة فى نظر الصغار لأنها فقدت قيمتها عند الكبار !

وجاءت ردود أفعال من المتدينين ورجال الدين ـ قليلة الجدوى عالية الضوضاء كثيرة الكلام .. لم تفطن إلى أن ذلك المخزون الهائل الموروث يمكن تنقيته وترقيته .. فهو ليس طبيعة وإنما اكتساب واعتياد اجتماعى عميق الجذور جدا يحتاج تعليم الأنثيعن نفسها ما لا يعرف عنه الذكور عادة إلاّ القليل .. وتدريبها على تنقية هذا الموروث وترقيته .. حتى لا تفاجأ مع إطلاق الحرية والمساواة ـ بتداعى الشقاء والحيرة والفشل كما هو حادث الآن !

ثم لا يوجد فى أصل العقل اعتراض على الزينة وإخفائها وإعلانها ، ولا على التطيب والعناية بالمظهر مع الاحتشام ، إنما الإشكال فيما يكون خلف ذلك من الاكتفاء بقصد عام مبهم ، ومن عدم ثبات المقاصد .. وذلك ناطق بقلة اتزان النفس .. إذ ليس يكفى تقليد أخريات أو آخرين فيما يفعلن فى أنفسهن أو يفعلون فى أنفسهم إذا لم يكن لدى الآدمى قصد جاد لغرض خاص به بالذات .. إذ من الحمق العام ألاّ نلتفت إلى

المخزون الهائل الموروث الذى لا نفكر فى تنقيته .. بل نحوم حوله بلا انقطاع .. ونفسح المجال أمامه للتعبير عن نفسه ـ بالدعوة إلى المساواة والحرية .. كأنما هذه الدعوة ستقوم بذاتها بتنقية وترقية ذلك المخزون !

وربما نجد خلف هذا الحمق العام فى البلاد المتقدمة .. نجد حرية الجنس أى حرية الآدمى ذكرًا أو أنثى فى التصرف فى نفسه جنسيا وفق مشيئته .. وقد استعمل المراهقون من الجنسين هذه الحرية كالبالغين .. فالكل حر فى أن يلتقط ما يشتهى عند من يصادفه بشرط التراضى .. وحر فى إظهار وإعلان مفاتنه على الملأ بمثل هذا الاحتمال المبهم !!

وهذا قد أخفى أو كاد أن يخفى الفارق المادى الذى كان موجودا ظاهرًا للعيون ـ بين الفحش والفواحش والفاحشين ، وبين جمهور الأسوياء .. وصارت التفرقة تفرقة ظنية معنوية شخصية يزيد فيها الفرد أو ينقص ما يشاء كما يشاء . فتراكمت دواعى الحيرة فى الشك وعدم الثقة ، وتجمعت فرص الخيبة وإساءة الظن بالناس وبالأيام ، وغلب التشاؤم لدى الأجيال الحاضرة التى قابلت فى سن مبكرة جدًا العديد من الخبرات المروعة بدنيًا ونفسيًا على غير استعداد وقبل النضج البدنى والعقلى .. ويصعب جدًا علاج عواقب هذه الخبرات فيهم وفى من يتعايشون معهم وفى ذراريهم . هذا كله لا يلتفت إليه إلا قليلون جدًا .. لأن مجاله هائل يشمل جميع الطبقات ويخالط حياتهم اليومية .. ويقابل فى كل منعطف وكل طريق وكل بيت وكل أسرة .. نهارا وليلا وصيفًا وشتاءً فى جميع البلاد المتقدمة !!

*****